في الاجتماع

الرجل الحكيم

بقلم الكاتب الأديب عبد الفتاح السرنجاوى

أستاذ الآداب بالمعهد الأزهرى

هذه أخلاط من الأصوات ترتفع فى سوق أثينا بلد الجمال والحكمة وعين الأقاليم كلها « أصحيح ما يقولون من أن الرجل قد اعتراه الجنون ؟؟؟ »

« لا شك فى هذا ، فهو يلبس على رأسه القلنسوة ، ويأتى على مشهد من جموع الأثينيين أعمال المجانين ! ! ! مسكين أنت يا سولون ! ! لعاب بجميل فى ذلك العقل الراجح المتزن الذى كان فخر أثينا ومبعث الهداية والحكمة لشبابها وشيبها ! ! ! أنصتوا أيها القوم فإن الرجل يأخذ فى الكلام .

هكذا كان يتحدث الناس عن سولون وقد اجتمعوا فى سوق المدينة ، وهكذا كانت عادة المرضى أن يلبسوا هذه القلنسوة على مشهد من الجموع فى ساحة السوق ، وهكذا اعتقد الناس حين رأوا سولون يقفز أمامهم بقلنسوته أنه أصبح فى عداد المجانين ، ولكن الرجل توسط هذا الجموع وطفق ينشد من نظمه قصيدة قال فيها إنه جاء إليهم من سلاميس يبلغهم خبر استيلائه عليها ، وأنه يلبس هذه القلنسوة لأنه يكاد يجن من السرور بما آتاه الآلهة من النصر المبين ! !

أما سلاميس أيها القارىء فجزيرة فى شرق أثينا ترتطم جبالها أمواج البحر الزاخر بسفين الأثينيين ، يسكنها قوم من الميجاريين أخذوها عنوة واستوطنوها ، وأثار سولون الأثينيين فخرجوا بقيادته جائشين يتقوسهم فى سبيل استرجاعها واحتال الرجل بأن جعل فريقاً من فتيان أثينا يلبسون الملابس الفضفاضة بحيث يرام الرائى فلا يشك فى أنهم من النساء ، ثم جاوز هذا فأرسل عيونه إلى الميجاريين يخدعونهم ويقولون لهم إن الفرصة سنحت لهم القبض على أعظم نساء أثينا ، وخدع الميجاريون وخرجوا فى سفنهم حتى وصلوا ساحل أثينا فنزلوا ورأوا النساء يرقصن على أنغام شجية ، فهجموا يريدون القبض عليهن ،

ولكنهم صمتوا حين رأوا ذلك الجمع من النساء قد تحول رجالا يحملون السلاح ويقفون على أهبة القتال ، ثم دارت معركة حامية كتب فيها النصر للأثينيين وأخذ سولون الجزية .

وفي مرة أخرى قام نزاع بين حزبين في أثينا على مسائل تتعلق بحكومة المدينة ، وقامت المعارك بين أتباع الحزبين ، فلجأ فريق من الحزب المغلوب إلى معبد « أثينا » ربة الحكمة ، وكان من التقاليد التي يراعيها الأثينيون ألا يعتدي الغالب على المغلوب إذا لجأ الأخير إلى المعبد ، لأنه مستجير بالآلهة . ومن اعتدى عليه فقد اعتدى على مقام الآلهة ! ! فجاء فريق من أتباع الحزب الغالب ووقفوا على باب المعبد وخاطبوا خصومهم قائلين :

« أخرجوا من المعبد واذهبوا معنا إلى مجلس القضاء ليقول فيكم القول الفصل ، فيحكم ببراءتكم أو يقول بأنكم من الآثمين . . . . ! ! »

« نحن لا نجرؤ على الخروج من المعبد المقدس ، لأن هذا معناه أن تعملوا فينا السيوف »

« أنقتلكم وأنتم في حماية أثينا ؟ ؟ إنا إذاً لخاسرون ، نحن نرعى عهدنا ونقدم لكم ذلك الخيط الطويل تربطون بطرف منه في محراب المعبد وتمسكون بالطرف الآخر حتى تصلوا إلى مجلس القضاء ، وطالما تمسكون ذلك الخيط أنتم في حماية أثينا . . . ! »

وهكذا ربط المغلوبون طرفاً من الخيط في محراب المعبد وأمسكوا بالطرف الآخر وهم في طريقهم إلى بيت القضاء ، ولكنهم لم يجاوزوا غير بعيد حتى انقطع الخيط فانقطعت صلتهم بالمحراب المقدس ولم يلبث خصومهم أن أعملوا فيهم السيوف ! ! !

ورأى الأثينيون في ذلك السلوك نقضاً للعهد وتمسكا للعصاة الجريئة في محراب أثينا ربة الحكمة ، وتولى سولون بعد هذا زمام الأمور فقضى بالنفي على الذين اشتركوا في تدبير هذه المؤامرة . . . . فالحيلة الأولى التي احتالها سولون على المجتمعين رأفت في نظر الأثينيين بينما اعتبروا الحيلة الثانية انها كالحرمة المحراب المقدس .

وشاء الكثيرون من أهل أثينا أن يتوجوا سولون ملكاً عليهم ، ولكنه كان يجد اللذة كلها في أن يكون شارعاً وحاكماً من غير أن ينقل رأسه بالتاج أو يقيد نفسه بالمعيشة في قصور الملوك ، ووجد البلاد منقسمة إلى طوائف منها الفلاحون سكان الجبال ، وأولئك يرهقهم العمل المتواصل وتثقل الديون كاهلهم ، وهناك سكان السواحل ، وليس أولئك بالفقراء المعوزين ولا بالأغنياء الموسرين ، وهناك الاشراف الذين يملكون السهول الخصبة والأعناب والماشية ، ويستمتعون بقسط كبير من الجاه والسلطان .

وكان أفراد الطبقة الفقيرة يتوقعون الخير على يد سولون ، فكانوا يأملون أن يسن

القوانين التي تنسخ ديونهم القائمة وتسلب الاشراف أرضهم لتوزعها على عامة الشعب الاثيني كما هو الحال في أسبرطه ، وحقق لهم سولون بغيتهم الاولى فألغى ديونهم القديمة وألغى القوانين التي كانت تقضي بالقبض على المدينين وإيداعهم السجون ، وعلم سولون أن فريقاً كبيراً من المدينين هجر أثينا خشية السجن فدعاهم وأمنهم على حريتهم كما أطلق سراح المدينين المسجونين فخرجوا منهللين فرحين ، وهكذا أحسن بهذه السياسة إلى الطبقة الفقيرة ، ولكن هل هذا هو كل ما يطمع فيه الفلاحون ؟ ؟ بقي الآن أن يقسم سولون فيما بين الاثينيين جميعا أرض الاشراف وضياعهم الفسيحة . . . . ولكن سولون خشي عاقبة ذلك ، لأنه لاشك يقلب نظام المجتمع الاثيني رأساً على عقب ؛ فقعد به ذلك عن تنفيذ هذه الخطة ، ومن ثم قام الفلاحون الذين كانوا يعتزون به ويبالغون في إطرائه وأخذوا عليه بالتعنيف .

ولكن أغلب الشعب كان يقدس سولون لأنه يعمل لصالح المحكومين ، وأنت تقدر سولون حق قدره حين تعلم أن شارعاً يدعى (دراكو) حكم أثينا من قبله فقرض على الناس القوانين القاسية التي تنص على إعدام من يسرق حتى القليل من أعشاب البساتين ، لذا قال الناس في هذه القوانين « أنها سطرت بالدماء لا بالمداد ! » ولكي تدرك مقدار ما خدم سولون أثينا فاني ألخص لك طائفة من القوانين التي سنها للأثينيين :

بدأ الرجل بتقسيم المجتمع الاثيني إلى أربع طبقات مختلفة ، وجعل الأرض أساساً لذلك التقسيم الاجتماعي وأنشأ مجلس الأربعمائة الذي يمثل الشعب ويتوب عنه في الاشتراك في الحكم ، وسن قانوناً يقضي بأن الشخص الذي يموت لا يذكره أحد بسوء ؛ وآخر يقضي بألا ينفق الناس الاموال الباهظة على المآتم ، وسن قانوناً يقضي بأن الابن لا يلتزم بالانفاق على أبيه الشيخ إلا إذا كان قد علمه صناعة نافعة ، ومن قوانينه أن الرجل لا يزرع شجرة في حديقته إلا إذا كانت تبعد عن حديقة جاره خمسة أقدام على الأقل كي لا تنشر الشجرة جذورها وتحصل على غذائها من أرض جاره ، وأن الرجل لا يمكن أن يضع خلايا النحل على بعد يقل عن ٣٠٠ قدما من خلايا جاره ، وكان يفرض على الكلب الذي يعض شخصاً أن يقيد بالسلاسل في كتلة ثقيلة من الخشب .

ومع ما كان عليه سولون من السلطان فقد كان يعيش في بيت ساذج حقير ويلبس الملابس الخشنة ، وعرض مرة أن ذهب سولون ليزور (كريسوس) ملك ليديا في قصره ، وما كاد يقترب من القصر حتى رأى الأشراف يدخلون ويخرجون بملابسهم المزركشة يسير كل واحد منهم ووراءه ذيل طويل من الحاشية والخدم ، ودخل سولون القصر وجيء به إلى غرفة الملك فرآه على عرشه الفاخر وقد بسطت البسط الجميلة ولمعت الأحجار الكريمة

وأضاءت التحف والنفائس واصطفت العمد المرمرية تحمل على رؤوسها سقف المكان ، ولكن سولون لم يدهش لشيء من هذا ، فقد كان يرى ذلك كله زخرفاً زائلا لا قيمة له في جوهر الحياة ، وبعد أن استقبله كريسوس رغب في أن يبهره بنفائسه ومجوهراته ففتح له خزائنه ، ولم يلبث أن سأله قائلا :

« هل رأيت ياصديقي سولون رجلا أسعد مني ؟ ! »

« نعم رأيت ! »

« ومن يكون ذلك الرجل ؟ ؟ »

« هو أثيني فقير اسمه (تيلوس) يعيش في كوخ متواضع مع زوجه وأطفاله الذين يحبونه حباً لايكاد يعدله حب ! ! وهو برغم فقره يملك كفايته ، ولا يملك مافوق الكفاية ، استشهد في ساحة الدفاع عن وطنه أثينا ، ولا يزال جيرانه يحيون ذكراه ! ! »

« هذا حسن ، وهل تعرف شخصا آخر أسعد مني ؟ ؟ »

« نعم أعرف »

« ومن يكون ياترى ؟ ؟ »

« هما أخوان مانا بعد أن بالغا في العطف على أمهما وقد بلغت عندها الكبر ، أحياها ولم يشأ لها قولا كريما ، وشاءت مرة أن تحضر في معبد القرية حفلة يجتمع فيها القرويون ، وكانت قد اعتادت أن تركب عربة يجرها ثوران كانا في ذلك اليوم يحرثان في حقل بعيد ، وقد اقترب موعد الحفلة ، والأم حريصة على أن تحضر في الموعد المحدود ، فلم يلبث ولداها أن أجلسا أمهما في العربة وأحلا نفسيهما محل الثورين وجعلا يجران العجلة حتى وصلا إلى المعبد وسط تهليل القرويين ، وحضر الجميع الحفلة جزلين فرحين ، ثم ماتا في هذه الليلة ، والناس جميعا يحيون ذكراهما إلى اليوم ! ! »

وبعد انقضاء هذه الزيارة بزمان غزت الجيوش الفارسية بلاد ليديا وأخذت (كريسوس) أسيرا ! وأمر (كورش) ملك الفرس أن يحرق كريسوس حيا ، فأعد جنود الفرس كومة هائلة من الحطب ووضعوا كريسوس فوقها وتأهبوا لاشعال النار في الحطب ، وإذ ذاك ساد المكان صمت مروع ، وفي وسط ذلك ناوه كريسوس تأوه الأسيف ثم قال :

« سولون ! ! سولون ! ! سولون »

وما كاد ملك الفرس يسمع ذلك النداء حتى أمر رجاله ألا يشعلوا النار في الحطب وسأل كريسوس عن السبب في مناداته لسولون فقص عليه قصته وماجاء على آخرها حتى أمر (كورش) أن يطلق سراح كريسوس قائلا كلمته الخالدة :

« إن إطلاق سراحه لن يعيده أسعد حالا ! ! ولن يجعله أعظم ما كان ! ! »

عبد الفتاح السمنودي